



## الفصل الرابع

أم كلثوم

وتطور فن الغناء العربي

## أم كلثوم وتطور فن الغناء العربي

قدم التخت الشرقي بعد سيد درويش عبقریات غنائية فذه استطاعت تقديم الفن الراقى المتميز أمثال فاطمة البلتاجى<sup>(١)</sup> (١٨٩٩-١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم<sup>(٢)</sup> صاحبة الموهبة الفذة ، وابنة الشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتي استطاعت بموهبتها المقترنة بثقافتها التي كونتها بجهدا وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التي وقفت في طريقها<sup>(٣)</sup> . وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها ، وبذكاؤها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية سواء في العالم العربي أو في غيره كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ونبراته الوضيئه التي يتمثل فيها الجمال كله في تكوين أساليب جديدة في التلحين العربي أتاح للملحنين أن يجوبوا أفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه الغناء في مصر وفيما يلى عرض لذلك .

### رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التي يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه ، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم قناة السويس والسد العالى ، والصحوه السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماي "الزهايرة" التابعة لمركز السبلواين دقهلية . وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلام محمد وارتفع صوتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) الكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراية الحريرية التي يرفعها الجندي فوق رأسه .

(٣) لم تتخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في الكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتتقن نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيدة مثقفة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هراما شامخا بين العظماء .

فحسب بل تذكرنا بجزء مهم من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التي عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين<sup>(١)</sup> ، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التي عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطاني ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها . وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتي فرضن احترامهن الفني والاجتماعي على مختلف طبقات المجتمع المصري .

وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاجي المنتشد في الموالد وأفراح القرى ومع أخوها في قرى السنبلوين ، وبعض أنحاء الريف المصري طوفا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصباها المبكر الذي ارتدت خلاله الشال والعقال وملابس النصبين ، وغنت شوامخ التراث الديني الصوفي التي قام والدها بتحفيظها آياه . وقد أتيح لأم كلثوم وهي في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة ، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بالقاء بعض التواشيع الدينية والإنشاد الديني في دار أحد عليه القوم في المجتمع القاهري بضاحية حلوان ، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن القدر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها . فقد إلتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد<sup>(٢)</sup> الذي تصادف أن سمعها في القطار وهي تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار ، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، وب توجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م ، وأخذت تغنى في "مقهى سانتى" بالأزبكية وفي "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة

(١) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقي وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم .

(٢) ولد في بلدة بنى عدى بمديرية أسبوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر ، وتحول إلى فن الغناء ، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولي في الغناء وبأسلوبه في التلحين ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم . قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباطا التلميذ بالأستاذ . وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربي حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ .



أم كلثوم أثناء إحدى بروفات أغنياتها مع فرقها الموسيقية

موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية ، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبو العلا بمثابة الأب الروحي والمدرسة الحقيقية التي تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها ، ونقل ذوقه الفنى إليها ودرّب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة ، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولى ، ويدربها على ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى ، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقدده وينطلق بالموسيقى العربية في آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد ، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعن همومه وأفراحه<sup>(١)</sup> .

وقد وجد الشيخ أبو العلا في أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معاً فأخذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة ، وأن يخطيها بكل الظروف المناسبة ليقدم من خلالها فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مستوى ، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عام ١٩٢٣ على مسرح "بيلوت باسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعة تنشّد دون مصاحبة أى آلة موسيقية للحن الدينى المشهور .

### "مولاي كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لم يعجب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلاً (كتب علينا الغلب يا أختى) وضع الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء ، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحاً لها أن الجمهور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه ، وأنه على المطربة أن تفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه وتوجيهه . وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقفت على

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ .

قديمها • فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان<sup>(١)</sup> • منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب"<sup>(٢)</sup> (عام ١٩٢٦) التي غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجاً فيها على منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد ، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخاً للأزهر • وتشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد الرزاق<sup>(٣)</sup> وأسرة آل المهدي<sup>(٤)</sup> ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على النخبة المتفكرة فى مصر ، كما استمدت منهما زاداً وطنياً ساعدها على تفهم مجريات ما حولها • وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن غنت قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيغاً" (عام ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبي "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء ، حيث وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله وإقتداره وعذوبته وجذالته فى هذه الأغنية •

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخليص الغناء العربى من العجمة العثمانية ، والرطانة الفارسية ، والألفاظ الغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات لفترات طويلة<sup>(٥)</sup> •

وبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهداً جديداً فى غناء القصيدة العربية ، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن

(١) سبير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٧-١٨ •  
(٢) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغاني فى فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد على وفتح السودان" بمسرح الأركبية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية •

انظر البلاغ فى ١٩٢٦/٣/١٧ والأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ •

(٣) كان بيت آل عبد الرزاق من بيوت العلم والاستنارة فى ذلك الوقت فهو الذى خرج منه على ومصطفى عبد الرزاق •

(٤) تبنى أمين المهدي راند هذه الأسرة لتعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود •

(٥) كمال النجمى : تراث الغناء العربى ص ٧٢ •

يعرفها رجال الموالد وحلقات الذكر والأناشيد الدينية ، وبجهوده نضج صوت أم كلثوم وتمت رعايته فنياً بالتدريب والتتقيف (١) ، لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطرب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان (٢) ، وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "الصب تفضحه عيونه" التي ألفها أحمد رامى ونشرها في جريدة السفور ومطلعها :

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شئونه

إن تكتمنا الهوى

والدء أقتله دفينه

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها ، ولم تنس أبداً فضله عليها بل ظلت تذكر دوره في حياتها الفنية ، وبأنه أفسح أمامها آفاقاً موسيقية واسعة وغرس في نفسها غرساً غنائياً طيباً ، وطبعها بطبعه (٣) . ويتمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا وفائها له أنها سارت في جنازته وراء نعشه في الخامس من يناير ١٩٢٧ في الوقت الذي لم يكن مألوفاً أن تسير امرأة وسط الرجال في جنازة تسير في شوارع وأزقة المدينة ، كما يتمثل إخلاصها له مسابقتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التي عملها لها فقد استطاعت أن تحفظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدواراً كثيرة لمحمد عثمان ، وعبد الحامولى ، ويوسف المنيلوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذي كان يلحن لها العديد من أغانيه في البداية ، وأن تسامر هذه الأدوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية في الموسيقى والطرب وكانت قدرات صوتها ، وما في أغانيها من ألحان من أبرز عوامل النجاح لهذه الثورة (٤) يضاف إلى ذلك أنها جمعت في داخلها أرسيفاً يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة خاصة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغاني القديمة ما كان قد اندثر من أسماع الناس

(١) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

(٢) الأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(٤) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .



محمد الموجي



كمال الطويل



رياض السباعي



محمد عبد الوهاب



زكريا أحمد



القصبي



بليغ حمدي

وأفواههم<sup>(١)</sup> . وظلت أم كلثوم ساحرة في بساطتها وعقالها ولباسها العربي ونضارتها التي لا تتفد ، وجلس حولها والدها وإخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته ، والناس ينصتون إليها مشدوهين . ولما كان ينقص أم كلثوم لكى تتطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذى يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها في الشاعر أحمد رامى<sup>(٢)</sup> الذى عاد من بعثته فى فرنسا فى ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية ، وبمستوى أسمى فى التعبير ، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التى استفزته لكتابة شعره ، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغاني التى يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمقف والفلاح وابن المدينة وغيره ، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائى الثانى فى عام ١٩٢٤ فى صالة "سانتى" واستهلتها بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حبك ليّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت ، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها . وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر فى النهوض بالأغنية المصرية ، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية فى التعبير بدأ رامى بشعره يحب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة معتمدا فى ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبديع نظمه وحلاوة عباراته . ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية فى التبلور ، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين ، وعابرة الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر<sup>(٣)</sup> والذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى<sup>(٤)</sup>

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) ولد فى ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، والتحق بوظيفة فى قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه فى عام ١٩١٨ ، سافر إلى باري لدراسة الفارسية ، وفى عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنة الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ .

(٤) ولد مع سيد درويش فى عام واحد (١٨٩٢) ودرس فى كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية والعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول فى حياته الفنية ، كما كان تطعيمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية أثرا فى إبراز طبقات أم كلثوم الصوتية .

الذى خلغ عمامته وجبته ولبس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا ، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركية ، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى ، وقد سار على منواله كل من رياض السنباطى<sup>(١)</sup> وزكريا أحمد<sup>(٢)</sup> وداود حسنى<sup>(٣)</sup> ، والدكتور أحمد صبرى النحريرى<sup>٤</sup> ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى وبلبل حمدي وغيره . وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا يمتاز عنهم فيها أحد ، خاصة وأنها كانت كالنحلة التى تأخذ من كل وردة رحيقها . وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحنينها علاقة من نوع خاص فهى لا تغنى اللحن فقط ، بل تلهم الملحن وتنتشر ألحانه فى الأفق . ولم تكن شريكة عادية فى الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معانى الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك ، كانت تختار الكلمات وتعديلها أحيانا مهما كان الشاعر الذى يؤلف أغانيها ، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها فى اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيل ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفى الأغانى الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التى كانت تفتتنها فى مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السودانى "الهادى آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهى قصيدة "أغدا ألقاك" . ياخوف فوادى من غدى" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التى اختارتها من

(١) كان أول لقاء للسنباطى بأم كلثوم فى عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها فى سهراته ولياليه بإشاد المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدري أحد منهما أنه سيلتقى بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقاءهما تلك الروائع والبدايع اللحنية التى تزخر بها المكتبة الغنائية . أنظر . بريزم للموسيقى . التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٠ .

(٢) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر فى رسم الحنجرية الذهبية لأم كلثوم ، وفى تشجيع والدها على العمل بالقاهرة .

(٣) لحن داود حسنى لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والقطاعات ذات القيمة الفنية العالية .

(٤) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم فى بدايه حياتها الفنية وقبل احترافها الغناء .

ديوانه الذى لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أعلى أمنياته التى لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم فى أى من حفلاتها<sup>(١)</sup> .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصرف فيه وتقرض صوتها عليه<sup>(٢)</sup> وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم فى ألحان أغانيها ، فكان يمكنها وهى تغنى أن تطيل فيه أو تختصره إذا أرادت ، وكانت الآلات الموسيقية غالباً تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء . لقد كان دور أم كلثوم فى الارتقاء بالغناء المصرى إلى مستوى شاعرى أكثر نبلا ، ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهور ينتقل من مستوى الأغاني المبتذلة ذات الدلالات والإيحاءات الهابطة ، والميوعة والتأوهات مثل :

"هات الغزازه واقعد لاعبنى" و"ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراننا  
تجرحنا"

و"عصفورى يا أمه عصفورى لا ألعب وأورى له أمورى"  
و"يوم ما عضتتى العضة وجابولى طاسة الخضة"  
و"أبيع هدومى علشان بوسه من خدك القشدة يا ملين"  
يا حلوة زى البسيسوسه يا مهلبية كمان وأحسن"

و"اشبكها واحبكها بدبوس وانزل على صورتك واعض وأبوس"

حتتلك بتتلك وتعاليلى يا بطه ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلك من الأغاني الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتى كانت تجد شهرة ورواجاً لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد ، والشعر الراقى ودينا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلاً ، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود الذوق الرخيص ، وانحدار القيم ، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصراً جديداً

(١) مصطفى الضمرانى : قضايا ثقافية معاصرة ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .

(٣) المصور : تصريح لأم كلثوم فى ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .

من الغناء ، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبتعد عن الأغاني منخفضة المستوى والتي كانت شائعة في الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغاني من اللون الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها<sup>(١)</sup> فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصر على تيار الأغاني المبتذلة ، ورفضت تماما أن تستسلم لهذا النوع من الأغاني ، وظلت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة ، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقي<sup>(٢)</sup> الذى وجدت فى شعره معينا سلسبيلا ولشاعر النيل حافظ إبراهيم<sup>(٣)</sup> ولأبى فراس الحمدانى وغيرهم ونتيجة لبروز أم كلثوم فى مسرح الغناء ، ومنافستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد من الافتراءات والإتهامات فى محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها فى شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمتها ، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة ، وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التليفونية التى كانت ترهق أعصابها ، كما حاولت منيرة المهديّة سلطانة الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ويقف من خلفها التخت وتردد بعض الأغاني الدينية والطقائيق متحديّة بذلك أم كلثوم الحقيقية ، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد ، نشرتها

(١) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت فى المرتبة الثالثة فى الاستفتاء الذى جرى فى عام ١٩٢٦ عن أحب المطربات فكانت الأولى منيرة المهديّة ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم .  
أحمد زكى عبد الحلیم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفیصل ١٩٨٧ ص ١١٨ .

(٢) بادر شوقى بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "سلو كنوس الطلا" فكانت أول قصيدة من شعره حفظتها أم كلثوم فى عام ١٩٣١ ثم غنت له "الملك بين يديك فى إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين البان والعلم" التى سماها شوقى "تهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصيرى ، وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقى ما يطابق الأحداث التى مرت بها مصر لغنائها ومنها قصيدة النيل ، وقصيدة إلى عرفات الله . والاشتراكيون أنت امامهم .

(٣) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وكان لها معهم ومع أصدقائهم جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضا .  
للتفاصيل أنظر عبد العاطى كيوان : الكاهنة والسخرية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٩٧ ص ٦٣ .

الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقفلة لها ، كما كانت تكتب فى إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية ، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتفت وراءها واختفت الفتاة الأخرى ، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود ، ووقفت كالطود الشامخ تنكسر الأمواج عند قدميها ، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف ، لا تهتم إلا بفنها حتى انقضت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل .

### أم كلثوم والسينما :

عندما بدأ العصر الذهبى للسينما المصرية بافتتاح ستوديو مصر ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ بدأ استخدام الموسيقى والغناء كعنصر فنى فى التأثير على المتفرجين ، فاستهل إنتاجه الأول بفيلم تاريخى غنائى قامت أم كلثوم ببطولته وعنوانه "وداد" الذى عرض فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ وكانت قصته من تأليف "أحمد رامى" وسيناريو أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور الجارية "وداد" المغنية فى عصر المماليك . وكان هذا الفيلم بمثابة فرصة للتجارب المتحفظة فى التلحين الجديد ، وفيه وقفت أم كلثوم لأول مرة ليشكل صوتها بداية الأغنية السينمائية الخفيفة ، وأدت دورها بفطرتها السليمة بكل إبداع واقتناع ، وغنت فيه خمس أغنيات تبارى فى تلحينها زكريا أحمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى وكانت كلها من نظم أحمد رامى ، وهى "يا طير يا عايش أسير" ، "ياللى ودادى صفالك" من تلحين القصبجى و"يا بشير الأوس" و"يا ليل نجومك شهود" لزكريا أحمد و"البحر زاد يا فرحنا" و"حيا الربيع عيد الزهور" لرياض السنباطى .

كما تضمن الفيلم مقطوعة موسيقية أطلق عليها فيما بعد "رقصة شانغهاى" وطقوقة مشهورة لحنها رياض السنباطى بعنوان : "على بلد المحبوب ودينى" (١) وكان فيلمها الثانى "نشيد الأمل" الذى عرض فى ١١ يناير ١٩٣٧ وهو من إنتاج شركة "أفلام الشرق" ومثلت فيه أم كلثوم دور سيدة عصرية اسمها "آمال" كانت تتمتع بصوت جميل واتجهت للعمل بالسينما وغنت فيه سبع أغنيات كانت كلها من نظم أحمد رامى قام القصبجى بتلحين أربع أغنيات منها :

وهى "يا مجد ياما اشتهيتك" و"ياللى صنعت الجميل" و"منيت شبابى" وأغنية الطفل" وقام السنباطى بتلحين الأغنيات الثلاث الباقية ، هى مونولوج "قضيت حياتى

(١) بريزم للموسيقى : التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٢ .

حيرى عليك" و"تشيد الجامعة" وطقطوقه "إفرح يا قلبى" وقام الفنان عزيز صادق بالتوزيع الموسيقي للأغاني فكانت هذه هي أول مرة تغنى أم كلثوم ألحانا موزعة موسيقياً .

وكان الفيلم الثالث هو فيلم "دنابير" الذى عرض فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٠ وكان من إنتاج ستوديو مصر وهو عن قصة وحوار وأغاني أحمد رامى وإخراج أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور "دنابير" الجارية العباسية" التى عاشت فى عصر الرشيد ، واستطاعت تأديته بإبداع وغنت فيه عدة أغنيات ذات ألوان متعددة كأغنية الشريف الرضى "قولى لطيفك بنتنى" التى غنتها فى مقامات مختلفة ، متدرجة فيها من نغمة إلى أخرى بكل روعة وإقتدار وكانت هذه الأغنية إحدى ثلاث أغنيات لذكريا أحمد ، وكانت الثانية "القصر المهجور" والثالثة "بكره السفر" وتضمن الفيلم أغنيتى "يا ليلة العيد" و"أنشودة بغداد" للسنباطى وثلاثة ألحان أخرى للقصبجى وهى "الزهر فى الروض تبسم" و"يا فؤادى غنى" و"أنشودة النبع" .

وجاء بعد ذلك الفيلم الرابع "عايدة" الذى عرض فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ وكان من إنتاج "شركة أفلام الشرق" عن قصة لعبد الوارث عسر وإخراج أحمد بدرخان ، وفيه ظهرت محاولة جريئة وهى استغلال صوت أم كلثوم القوى الرنان فى الغناء الأوبرالى ، لحن الفصل الأول منه محمد القصبجى ، وقام السنباطى بتلحين الفصل الثانى وقد مثلت أم كلثوم فى هذا الفيلم دور فتاه ريفية اسمها "عايدة" يقع فى غرامها ابن أحد الأغنياء ، وتتقف الفوارق الطبقية عقبة أمام إتمام الزواج . وقد غنت أم كلثوم فى هذا الفيلم عدا ألحان الأوبرا مجموعة من ألحان السنباطى والقصبجى وذكريا أحمد منها "يا فرحة الأحباب" و"القطن" .

وكان الفيلم الخامس "سلامة" الذى عرض يوم ٩ إبريل ١٩٤٥ وهو من إنتاج وسيناريو "توجو مزارحى" عن قصة من تأليف "على أحمد باكثير" والحوار والأغاني ليبرم التونسي وقد قامت فيه أم كلثوم بدور الجارية الأموية "سلامة" التى اشتهرت منذ حداثة سنها بجمال الصوت . وقد اشتمل الفيلم على تسع أغنيات كلها من نظم بيرم عدا قصيدتين هما "قالوا أحب القس" التى لحنها السنباطى وتتسب إلى الشعر القديم والثانية "يا بعيد الدار" لعباس بن الأحنف . أما باقى الأغنيات فهى "غنى لى شوى شوى" و"قوللى ولا تخبيش يا زين" و"سلام الله على الأغنام" و"عيني يا عيني" و"برضاك" و"لغة الزهور" و"نور محياك" . وإذا كان بيرم التونسي قد استأثر بنظم معظم أغاني الفيلم

فإن زكريا أحمد كان له نصيب الأسد في التلحين إذ قام بتلحين ثمانى أغنيات بينما لحن الأغنية التاسعة رياض السنباطى وهى قصيدة "قالوا أحب القس" .

وفي هذا الفيلم ارتفعت أم كلثوم بفنهما التمثيلى والغنائى إلى أرفع الدرجات فى الأداء والتعبير ولم تغن فيه تلك الأغنيات التسع فحسب ، بل قرأت أيضا ولأول مرة على الشاشة آية قرآنية من "سورة إبراهيم" اهتزت لها القلوب بالخشوع والإيمان .

أما الفيلم السادس والأخير فكان "فاطمة" الذى عرض فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٧ ومثلته وهى فى سن الثالثة والأربعين وهو الفيلم الذى اعتزلت بعده السينما وكان من إنتاج ستوديو مصر ومن إخراج "أحمد بدرخان" وتأليف "مصطفى أمين" وقد مثلت فيه دور "فاطمة" الممرضة الفقيرة التى تزوجت بعقد عرفى من ابن أحد الأثرياء . وقد غنت أم كلثوم فى هذا الفيلم تسع أغنيات اتجهت فى ثلاث منها إلى الأغنية الجماعية التى اشترك معها فى غنائها أفراد "الكورال" وهى "تورك يا ست الكل" لبييرم التونسى والقصبجى و"نصرة قوية" لبييرم وزكريا أحمد و"ظلمونى الناس" لبييرم والسنباطى .

وتضمنت الأغنيات الأخرى ثلاث أغنيات تفيض بالبهجة والمرح وحب الحياة لبييرم أيضا وهى "يا صباح الخير" للقصبجى ، و"لغة الزهور" و"جمال الدنيا" لزكريا أحمد بجانب أغنيتين حزنتين هما "أصون كرامتى" لرامى والسنباطى و"اليتيم" لرامى والقصبجى . أما الموسيقى التصويرية فى جميع أفلام أم كلثوم فقد وضعها "محمد حسن الشجاعى" (١) " ما عدا موسيقى فيلم نشيد الأمل التى كانت من وضع عزيز صادق" (٢) .  
والجدير بالذكر أن إعجاب الناس بهذه الأفلام ، واقتناع الجماهير بأدوار أم كلثوم ، لا يرجع إلى قصة الفيلم أو الأداء التمثيلى أو الأداء الغناء بقصة الفيلم أو الأداء التمثيلى بمقدار ما يعود إلى سحر شخصية أم كلثوم والأغنى الرائعة التى قدمتها .

(١) ولد فى إحدى قرى كفر الزيات فى عام ١٨٩٩ ، وعشق الموسيقى التصويرية ، وعين مستشارا فنيا للموسيقى والغناء فى الإذاعة المصرية ، وبدأ فى التأليف الموسيقى للموسيقى التصويرية للكثير من الأفلام السينمائية كما وزع بعض أوبريتات

سيد درويش مثل شهر زاد والعشرة الطيبة ورحل عن دنيا فى العاشر من يونيو ١٩٦٣ .

أنظر : التأليف الموسيقى المصرى المعاصر ج١ ص ١٣٤-١٣٨ .

(٢) محمد السيد شوشة : رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة ، روز اليوسف ١٩٧٨ ص ٥٤-٦٠ .

وقد ظل الفيلم الغنائى يحتل المقدمة طوال الأربعينيات والخمسينيات ، واستطاع أن يؤثر تأثيراً قوياً فى الأغنية العربية سواء من ناحية الكلمات أو اللحن أو الأداء الغنائى أو الموسيقى . ومع ذلك فإن أم كلثوم لم تربط مستقبلها بفن السينما بل سخرت فن السينما لشخصيتها الفنية المستقلة<sup>(١)</sup> واستطاعت أن تتسحب من الميدان فى الوقت المناسب لتعيش وتخلد على الستار الفضى فى أدوارها الخالدة<sup>(٢)</sup> .

### حفلات أم كلثوم الشهيرة :

فى الثلاثينيات من القرن الماضى وبعد أن أصبح الثمر يانعا فى بستان الغناء العربى كان صوت أم كلثوم هو أول صوت سجلته " الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية"<sup>(٣)</sup> فى حفل خارجى عام ١٩٣٤ بعد أن تعاقبت معها على مشروع الحفل الشهيرى المذاع مباشرة على الهواء<sup>(٤)</sup> ومن خلاله عرف المستمعون أم كلثوم على نطاق مصر كلها ، وانعقدت الألفة والمودة بين المستمع وأم كلثوم من خلال الراديو ، وأصبحت أغانيها متاحة لجموع الشعب بعد أن كانت مقتصرة على طبقة معينة منه . وإلى جانب ذلك فإن حفلات أم كلثوم الشهيرة كان لها أكبر الأثر فى تقديم فنها المتجدد فى كل حفلة من هذه الحفلات التى كانت تعد بمثابة حفلات قومية ، فالجميع ينتظرون الخميس الأول من كل شهر<sup>(٥)</sup> . حيث يلتف حول صوتها ملايين المستمعين ليس المصريين الذين يتجمعون فى المقاهى والبيوت لقضاء السهرة كلها معها فحسب بل والعرب أيضاً الذين جمعتهم أم كلثوم على الحب والفن ، ووضعت رؤوسهم على أيديهم ليقولوا فى نفس واحد "الله الله يا ست" فشوارع القاهرة المزدهمة دائماً كان يهدأ فيها الضجيج فجأة وتخلو من المارة فى انتظار سماع أم كلثوم على موجات الأثير التى تنفرد لها ، وتدبغ أغانيها بما فيها من ضوضاء وتصفيق . والناس فى العالم العربى على مختلف أعمارهم ومستوياتهم يتوقفون عن أسماهم وأعمالهم فيضطر الشيوخ إلى الكف عن لعب الطاولة فى مقاهى الدار البيضاء وفى بغداد ودمشق وعمان وغيرها ويجولون موجات محطات إذاعة بلادهم

(١) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٥٤ .

(٢) شوشه : مرجع سابق ص ٦٠ .

(٣) فى عام ١٩٣٤ حلت الإذاعة الحكومية محل الإذاعات الأهلية ، وكان الأستاذ سعيد لطفى أول مدير لها ، وكانت مدة الإذاعة اليومية ١٢ ساعة .

(٤) البيانى سحاب : أم كلثوم وملحنوها دراسة بوجهات نظر فى مارس ٢٠٠١ ص ٥٥ .

(٥) كانت أم كلثوم تبدأ السنة الغنائية بحفلتها فى الخميس الأول من أكتوبر وتتوقف فى الصيف مع الراحة والاصطياف .

إلى موجات إذاعة القاهرة للاستماع إلى نجمة وقيثارة الشرق أم كلثوم فى برنامج مدته خمس ساعات أو يزيد (١) ، يضاف إلى ذلك أن حفلات أم كلثوم كانت الفرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن ، حفلات تودى ليس فقط إلى رواج الكوافيرات والتاكسيات والترزية والمطاعم والفنادق ، بل كانت تودى أيضا إلى رواج شركات السياحة وشركات الطيران التى تحمل من كل العالم عشاقا لصوتها مرة كل شهر (٢) يحضرون إلى القاهرة لمشاهدة أم كلثوم وهى تتحرك فوق المسرح وتتهز بمنديلها الأبيض ، وكل حركة منه ومن يدها عبارة عن إشارة بدء وتجويد لمن يجلس خلفها من أعضاء فرقها الموسيقية الذين حفظوا هذه الإشارات وكأنها قائد لفرقة موسيقية من النوع النادر ، ولكى ينسوا الدنيا كلها مع سحر غنائها الرائع ، وصوتها الساحر وحنجرتها القديرة التى تفوق الوصف ، والتي تنبض بالحب والأسى بحس عاطفى يجعل الكثير من مستمعيها يبكون فى كثير من الأحيان ، ويطالبونها بإعادة كوبليها معينة . وبعد أن ظهر التلفزيون فى مصر عام ١٩٦٠ نجحت حفلات أم كلثوم التى قدمها التلفزيون نجاحا باهرا ، وظل صوتها قويا خفاقا فصيحاً نقياً ، وكان الإعجاب بصوتها ظاهرة شملت العالم العربى كله بمختلف بيئاته وظروفه الاجتماعية والتاريخية . كما أن أغانيها ساهمت بشكل كبير فى تدعيم اللغة العربية الفصحى خاصة وأن أداءها للحروف والكلمات كان أداء سليماً يتميز بالوضوح والصفاء الكامل حتى قال عبد الوهاب فى حديث له عنها : إنها كانت فصيحة النطق بمعنى أنها حين تنطق جملة فإن الجملة تبلغ أذنك حرفاً حرفاً كل حرف قائم بذاته وله موسيقاه الخاصة كما أن أغانيها العامية كانت أقرب إلى العربية الفصحى ، ومعنى ذلك أنها لم تكن مطربة المثقفين فحسب بل كانت مطربة كل الناطقين بلغة الضاد ، وإلى جانب ذلك فقد كان صوتها من الأصوات الخصبة الذكية التى تزغرد ، ولا نظن أن أحداً خدم الفصحى من المطربين كما فعلت أم كلثوم سواء فى قصائد العشرينيات ذات الألحان العالية التى غنتها أو فى قصائد الستينيات ذات القراءة الموسيقية ولا أحداً كانت رقة التسابيح الدينية واسعة عنده مثل أم كلثوم التى غنت "نهج البردة" و"سلو قلبى" و"إلى عرفات الله" و"ولد الهدى" (٣) ، ولا أحد غنى

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ص ١١ - ١٢ .

(٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص ٦٥٦ .

(٣) لحن السنباطى هذه الأغاني لأم كلثوم بدءاً من عام ١٩٤٦ .

انظر : التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٧ .

للحركة الوطنية سواء في مصر أو العالم العربي مثل أم كلثوم التي غنت لوطنها سواء في أفراده أو أترابه .

### أغاني أم كلثوم الوطنية :

لقد استطاعت أم كلثوم بشخصيتها وقوة إرادتها وصوتها الجميل ونشاطها أن ترتقى بفن الغناء العربي وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ، وكان لها شخصية اجتماعية بارزة لها مكانتها ، تختار اللحن والكلمة دون مجاملة لأحد على فنها الأصيل . كما كانت علما على أمة بأسرها من المحيط إلى الخليج ونغمة صافية للحب والسعادة بالنسبة للشعب العربي على مدى نصف قرن أو يزيد حتى لقيت بقيثارة السماء ، وبهدية السماء إلى العواطف والوجدان .

وقد ظهر معدن أم كلثوم الأصيل خلال الأزمات التي تعرضت لها مصر والأمة العربية ويظهر ذلك جليا في أغانيها الوطنية ، فقد واكبت أم كلثوم الحركة الوطنية وكان لها فيها نصيب كبير فغنت لذكرى سعد زغلول وأنشدت لفلسطين ولأبطال الفالوجا<sup>(١)</sup> ، ولأعياد مصر الوطنية جميعا قبل وبعد الثورة وكان "تشيد الجامعة" الذي كتبه رامى ولحنه السنباطي وغنته أم كلثوم في فيلم "تشيد الأمل" عام ١٩٣٦ من أوائل هذه الأناشيد وكان مطلعها يا شباب النبيل ، يا عماد الجيل ، هذه مصر تتادكم فلبوا دعوة الداعي إلى القصد النبيل ، ثم جاء فن صناعة السينما ليضيف بعدا هاما في حياة أم كلثوم الفنية ، ففي فيلم "دنانير" غنت أم كلثوم نشيدا عن بغداد ولم تقتصر أم كلثوم على غناء الأناشيد الحماسية في أفلامها فغنت في فيلم "عايدة" عن القطن المصري أغنية مطلعها :

### أبيض ومنور على عوده يحيى الأمل عند وجوده

وعند تأسيس الجامعة العربية في عام ١٩٤٥ غنت أم كلثوم أغنية بهذه المناسبة كان من أبياتها أن العروبة فيما بيننا نسب . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ومطالبته المصريين بجلء الإنجليز الكامل عن مصر غنت أم كلثوم .

### وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

(١) أقامت أم كلثوم حفلة في منزلها لأبطال الفالوجا الذين حوصروا خلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وكان عبد الناصر أحدهم .

وعندما طالب المصريون بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبرزت العمليات الفدائية فى منطقة القتال غنت أم كلثوم ألباتا من قصيدة حافظ إبراهيم ، وتلحين السنباطى منها •

### وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ غنت أم كلثوم قصيدة من شعر أحمد رامى وألحان رياض السنباطى مطلعها •

### مصر التى فى خاطرى وفى فمى أحبها من كل روحى ودمى

ثم تدفقت أغانى أم كلثوم الوطنية ويظهر ذلك جليا مع تطورات الأحداث ، ففى حادث المنشية غنت أم كلثوم "يا جمال يا مثال الوطنية" وعند وقوع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ غنت نشيد "والله زمان يا سلاحي" على أضواء الشموع وأثناء دوى صفارات الإنذار المنذرة بغارة جديدة على القاهرة ، وتمكنت من تسجيل هذا النشيد الذى أصبح النشيد الوطنى لمصر قبل تغييره بنشيد "بلادى بلادى" وإلى جانب ذلك غنت أم كلثوم محلاك يا مصرى ، وثوار ، وطوف وشوف ، وعلى باب مصر ، والحب الكبير<sup>(١)</sup>، وأصبح عندى الآن بندقية ، وكلها أغانى رصدت تاريخنا الوطنى وجعلت العديد من الشباب عندما يستمعون إلى مثل هذه الأغانى يستفسرون عن كتب التاريخ عن حقيقة ما حدث وحينما وقعت نكسة ١٩٦٧ أعلنت أم كلثوم اعتزالها الغناء بحجة أنها فقدت شهيتها للغناء بعد الهزيمة ثم عدلت عن ذلك القرار تحت إلحاح الكثيرين وعادت من أجل أن تضع صوتها فى خدمة المعركة فظهر معدنها الأصيل عندما طلبت من عشاق فنها أن يتبرعوا بالذهب ٥٠ بالذبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى وتبرع الناس بأغلى ما يملكون كما قامت أم كلثوم بجولات فنية متنوعة داخل مصر وخارجها لجمع الأموال والمعادن النفيسة من أجل دعم المجهود الحربى فغنت فى دمنهور وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه ، وغنت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه وغنت فى الإسكندرية وجمعت ١٠٠ ألف جنيه بخلاف السبائك الذهبية التى كان يتبرع بها الناس ، كما جابت أم كلثوم العديد من البلدان العربية لهذا الغرض فزارت المغرب وتونس والكويت ولبنان والسودان وليبيا لجمع الملايين للمجهود الحربى ، كما سافرت إلى باريس لتغنى من أجل إيقاف النخوة العربية وأودعت كل ما جمعته للمجهود الحربى •

(١) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ، غابا الصراع بين أم كلثوم وجيهان السادات ، القاهرة ، دار الشباب العربى ١٩٩٤ ص ٢٨-٢٩ •

وخلال ذلك لاقت أم كلثوم استقبالا رائعا من شعوب هذه البلاد وحكوماتها ، كما لقيت حُبًا وترحيباً وتكريماً فاق الوصف والتصور . فأُم كلثوم تحمل الفن الجميل الجاد الأصيل إلى الوجدان والثقافة في مجتمعنا العربي . وإلى جانب ذلك قامت أم كلثوم بزيارة الجنود الجرحى في المستشفيات أثناء وبعد الحملات العسكرية تبث فيهم الأمل وتوزع عليهم الهدايا . ولم تتوقف جهود أم كلثوم على ذلك فبعد انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ وكانت الشبخوخة قد بدأت تزحف عليها حاولت حصر جهودها في التبرع بالأموال لمشروع يحمل اسمها وهو "مشروع أم كلثوم للخير" لخدمة جرحى الحرب ولكنه لم ير النور لمنافسة "مشروع الوفاء والأمل" له والذي نجحت السيدة جيهان السادات في إقامته ، وهكذا خدمت أم كلثوم وطنها ، ووقفت بجانبه خلال المحن وقدمت له العون كل العون من خلال فنها ، وكان عطاؤها بلا حدود .

### أم كلثوم ملحنًا :

لقد غنت أم كلثوم في حياتها الفنية حوالي ٧٠٠ أغنية قدمت من خلالها لجمهورها قيما دينية ووطنية عبرت فيها عن صورة متكاملة من الحب الإلهي ، وحب الوطن وحب الحبيب وكان حبها في كل الحالات شامخا قويا يبشر بأنبل القيم وأغلاها ، كما يبشر بالرغبة في خلق بيئة ثقافية وفنية وأخلاقية راقية ، وفي ازدهار الآمال المتفتحة في القلوب حتى أصبحت جزءا من وجدان هذا الشعب الذي أطلق عليها اسم "سومة" تديلا لها وتحببا فيها ، ولحن لها كبار الملحنين . والسؤال المطروح هو هل فكرت أم كلثوم في التلحين كما فعل عبد الوهاب وغيره ؟ والواقع أن هذا السؤال سألها لها الصحفي المعروف فكرى أباطه بقوله ألم تفكرى مرة في أن تضربى بأناملك الرقيقة على العود أو القانون أو تلحنى ؟ فكان جوابها "إننى من المعتنقين مبدأ "ما لقيصر لقيصر وما لله لله" فضلا عن أننى مهتما بتدريب على العود أو القانون فلن أطاول أفذاذ الملحنين . فهل هذا يعنى أنها لم تفكر في التلحين لفتاعتها أن هناك من هو أقدر منها على ذلك<sup>(١)</sup> ؟ الواقع أن لأم كلثوم محاولات في التلحين كانت قد بدأتها مبكرة ففي عام ١٩٢٨ لحننت طقطوقه "على عيني الهجر" من كلمات أحمد رامى وفي عام ١٩٣٦ لحننت مونولوج "يا نسيم الفجر" وإلى جانب ذلك يذكر عبد الوهاب أن محمد القصبجي الملحن الكبير كان يدرّب أم كلثوم على العود حتى فترة قريبة قبل وفاته<sup>(٢)</sup> .

(١) رجاء القاش : مرجع سابق ص ٣٠-٣١ .

(٢) ضمن حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبد الوهاب . أنظر النهر الخالد ، الكويت ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٢ ، ص

## أم كلثوم والمسرح الغنائى :

أخذ البعض على أم كلثوم ابتعادها عن المشاركة فى المسرح الغنائى ، ومحاولة بناء أوبرا مصرية • وكان رد أم كلثوم هو أن المسرح الغنائى فى مصر لم يكن أوبرا ولا أوبريتا ولا غناء مسرحيا بالمعنى المفهوم بل كان مجرد أغانى فوق المسرح لا تتسجم مع القصة المسرحية ، فكانت الأغنية تسير فى جانب والموسيقى فى جانب والقصة نفسها فى جانب ثالث ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة أى صلة ، وأنها لا تقبل هذا الأسلوب فى الغناء • وقد حددت أم كلثوم النموذج الأوبرالى الواجب تقديمه فى مصر فقالت "نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة عن تراثنا وحياتنا تبهير العالم كله" ولخصت ذلك فى النقاط التالية :

- ١- إستلهم روح التراث الموسيقى القديم وربطه بواقع الحياة المصرية •
- ٢- إعداد أصوات مختلفة لتشارك فى الغناء وإعداد كورس غنائى مدرب •
- ٣- المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة فى الموسيقى الشرقية ولا توجد فى الغربية •

• وإذا تحققت هذه الظروف كلها سيظهر مولد أوبرا مصرية كفن حقيقى<sup>(١)</sup> .

## أم كلثوم فى ميزان النقد :

ترددت الأقوال عن منع أم كلثوم من الغناء ، ومنع أغانيها من الإذاعة فى بداية الثورة لأنها من العهد البائد كما ترددت أقوال أخرى حول اختيار أم كلثوم لكلمات أغانيها المليئة بالذل والهوان والاستسلام •

وحول ما تردد من منعها من الغناء بعد قيام الثورة نظرا لعلاقتها بالقصر الملكى ومنحها وسام الكمال لمشاركتها فى الاحتفالات الخاصة بميلاد الملك وعيد الجلوس وإعدادها الأغانى الخاصة بمثل هذه المناسبات الملكية مثل (يا مليك النيل ١٩٣٧) و (عيد الدهر ١٩٣٧) و(يا ربوع النيل ١٩٣٨) و(يا بهجة الروح ١٩٤٠) و(يا مليكى ١٩٤٣) و(مولد الفاروق ١٩٤٦) الخ •

هذا إلى جانب قيام الملك فاروق بتكريمها فى عام ١٩٤٥ بعد أن غنت له أغنية

فى أوان الورد" والتي اختتمتها بكلمات :

(١) خيرى شلبى : مرجع سابق ص ٩٨-٩٩ •

أعياد فى كل مكان  
بيك يا فاروق تزدان  
متجمعة فى أوان  
فيه الوجود فرحان  
فى أوان الورد<sup>(١)</sup>

وأنه نتيجة لذلك وعلى الرغم من محاولات أم كلثوم إعلان تأييدها للثورة عند قيامها وذهابها إلى الإذاعة لتشرف بنفسها على حذف بعض الفقرات الخاصة بالعهد الملكى من أغانيها ، ولا نتزاع كل ما يتصل بفاروق وعهده من كلمات ، وقيامها بغناء قصيدة صوت الوطن فى أكتوبر ١٩٥٢<sup>(٢)</sup> فإن كل ذلك لم يشفع لها ، فقد تم بأمر من وزير الإرشاد فى حكومة الثورة منع أغانيها من محطات الإذاعة المصرية باعتبارها أحد رموز النظام الملكى السابق حتى تدخل جمال عبد الناصر فور علمه بالقرار ، وأمر بإلغاء قرار المقاطعة فوراً ، وإعادة إذاعة أغنيات أم كلثوم وإعادة حقوقها المادية عن إذاعة بعض أغانيها التى صاحبت بيانات الثورة<sup>(٣)</sup> قائلاً إذا كنتم تريدون منع أم كلثوم من الغناء اهدموا الهرم الأكبر<sup>(٤)</sup> .

هذا حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء عند قيام الثورة . أما عن تعرض البعض لنقد أغاني أم كلثوم فقد قال البعض أنها كانت تختار الأغنيات الملبنة بالذل والهوان والحزن والتى تدعو إلى الاستسلام الجماعى من نوع (حتى الجفا محروم منه) وغيرها من الأغاني التى تذرف الدمع حزناً على فراق الحبيب ، وتذكر كمية ساعات الليل التى لم تر فيها العيون يوماً شوقاً إلى لقائه ، وقال آخرون أن خيالاتها الغنائية الطويلة جعلت الناس يتعاطون المخدرات وأنها تدعو إلى التعصب الدينى عن طريق أغانيها الدينية وأنها حجبت المواهب الغنائية عن الظهور ، والحقيقة غير ذلك فقد استطاعت أم كلثوم أن ترتقى بمستوى الفن الغنائى وحماية الذوق العام فى الوقت الذى

(١) نبيل حنفى : أم كلثوم بين عهدى . مقال بهلال فبراير ٢٠٠٢ ص ١٤٨-١٥١ .

(٢) مجلة الإذاعة المصرية . العدد ٩١٨ فى ١٨/١٠/١٩٥٢ .

(٣) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ص ١٥٠-١٥١ .

(٤) وحول الروايات التى تناولت ذلك الموضوع أنظر سعيد عكاشة . عبد الناصر وأم كلثوم مقال فى هلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٢٥-١٢٧ .

كانت فيه مطربات القاهرة المشهورات مجرد عوالم أو أسطوانات يسطعن فى الأفراح والليالى الملاح، ويخلطن غنائهن البدائى برش الملح والزغاريد والرقص ، وأنه بالرغم من غياب أم كلثوم وافتتاح الأبواب أمام كل الأصوات ، فقد ظل مكانها شاغرا لا يستطيع أحد أن يملأه، وظلت أم كلثوم سيدة الغناء العربى بلا منازع ، فهى وإن كانت روحها قد ذهبت إلى دار البقاء ، فإنها لم تمت فنيا بل سوف تبقى ما دام الجمال متعه وهدفا

### قصة أم كلثوم مع زكريا أحمد :

يحتل زكريا أحمد فى التسلسل التاريخى لملحنى أم كلثوم المركز الرابع بعد الشيخ أبو العلا ، والدكتور النحريرى ، ومحمد القصبجى ، ومع ذلك فإن دوره فى إبراز عبقريتها الغنائية كان أساسيا ويرجع أول لقاء بينهما إلى الثانى من يونيو ١٩١٩ فى بلدة السنبلوين دقهلية حيث غنت له مع أخيها خالد . وبعد ذلك بثمانية أيام قام بزيارتها فى قريتها "ظماى الزهايرة" وأقنع والدها الشيخ إبراهيم بأهمية انتقالها إلى القاهرة ، واحتراف الغناء ، والانتقال من الإنشاد الدينى إلى الإنشاد النبوى .

وقد لحن زكريا أحمد لأم كلثوم ٦٠ أغنية من الصبغ والقوالب الغنائية المختلفة كان أولها طقطوقة "اللى حبك يا هناه" فى مطلع الثلاثينيات و"جمالك ربنا يزيد" ثم لحن لها "أهل الهوى باليل" و"أنا فى انتظارك" و"كل الأحبة إثنين إثنين" (١) " كما تبارى فى تلحين معظم أفلامها مع القصبجى والسنباطى .

وعما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه كتب الشيخ زكريا يقول "أصبحت مفتونا بها ، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد" وذلك الاعتراف بافتتانه بها يفسر ما أودعه من روحه الحية فى الحانه لها(٢) .

لقد كان زكريا أحمد يقدر أم كلثوم تقديرا شخصيا كبيرا ، ويتغزل فى عبقرية صوتها معتبرا إياه هبة استثنائية من السماء كما كان يشيد بشخصيتها الفنية المؤثرة ، ويعتبرها خير من يودى ألحانه وبالرغم من ذلك فقد حدثت قطيعة بينهما استمرت عشر سنوات بسبب الأجر المادى وإصراره على الندية فى التعامل معها (٣) ولعب البعض دوراً مقصودا فى إساءة العلاقة بينهما حتى توترت الأمور ووصلت إلى أبواب المحاكم مما

(١) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨ .

(٢) هشام فاروق : شيخ الملحنين وهواه الغلاب ، مقال بهلال أكتوبر ٢٠٠٠ ص ١٦٤ .

(٣) الياس سحاب : مقال فى وجهات نظر سبق ذكره ص ٥٤ .

أوقف ثمار التعاون بينهما حتى تدخل الرئيس عبد الناصر فى الأمر ، وأبدى أسفه ذات يوم لأم كلثوم من حرمان عشاق فنها وفن زكريا من تعاونهما معها ، فسعت لتصفية الخلاف إحتراماً لرغبة عبد الناصر . وأمام المحكمة أبدى زكريا أحمد أمام القاضى إستعداده للتنازل عن القضية والتعاون مع أم كلثوم بلا شروط ، وبلا مقابل أيضا . كما رحبت أم كلثوم بالتعاون مع الشيخ زكريا وبكل الشروط التى يطلبها . وبعد أسابيع قدم زكريا أحمد لحنه لأغنية "هوه صحيح الهوى غلاب" لأم كلثوم التى استقبلته فى بيتها بعد سنوات الفراق الطويلة ، وجلس زكريا أمامها وأمسك بعوده ، وراح يغنى كلمات اللحن :

### هو صحيح الهوى غلاب . . ما عرفش أنا

وانتهى من أداء الأغنية التى تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لا يفيد ، وتحول نهار العشاق إلى ليل ، ولما سألتها أم كلثوم ألم تلحن شيئا آخر ؟ وكان زكريا - الذى يعرف أم كلثوم جيدا - مستعدا للسؤال ، فأجابها على الفور : بلى . . وقد فعلت ! ثم غناها نفس الأغنية بلحن آخر ، مختلف تماما عن الأول وسمعته أم كلثوم فحارت بين اللحنين ، أيهما أجمل . ولم يدعها زكريا لحيرتها طويلا ، وإنما قال لها بلهجة معبرة . لن تغنى هذا اللحن ولا ذاك ، ولكن ستغنين هذا اللحن ! ثم أسمعها نفس الأغنية بلحن ثالث مختلف تماما عن اللحنين السابقين ، وهو اللحن الذى غنته للجماهير بعد ذلك . وكان قد استعد به لمواجهة طبيعة أم كلثوم الفنية التى يعرفها عن ظهر قلب . ويعرف عنها أنها لا تقنع أبدا بأول محاولة فنية ، فاستعد لها بتلحين الأغنية بثلاثة ألحان مختلفة حتى لا تطلب أى تعديل . وشدت أم كلثوم بالنغم الأصيل بعد طول انقطاع . وطرب الناس له . . وتذكروا الأيام الجميلة التى كانت أم كلثوم لا تغنى فيها إلا من ألحان زكريا أحمد . وتذكروا إفتتان زكريا أحمد بصوت أم كلثوم الذى لا يغيب عن باله ولكن العمر لم يهمل زكريا أحمد لكى يقدم لأم كلثوم مزيدا من هذا النغم الأصيل<sup>(١)</sup> . ففي ١٤ فبراير ١٩٦١ صعدت روح زكريا أحمد إلى بارئها بعد أن قدم العديد من الألحان الخالدة التى خلفها من عسارة قلبه واحساساته الفياضة التى لن تموت أبدا<sup>(٢)</sup> .

(١) عبد الوهاب مطاوع : عاشوا فى خيالى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨ - ٥٠ .



محمد فوزی



لیلی مراد



آسمهان



نجیب الريحانی



شکو کو

## مقلدات أم كلثوم ومطربات عصرها

بعد رسوخ أسلوب أم كلثوم فى الغناء ، وتمكنها من فتح مغاليق الحس والتذوق الغنائى للمستمعين ، وانفرادها بين كافة معاصريها بالإعجاب ، وفد إلى الساحة الغنائية مطربات جديدات فظهرت "أمال الأطرش" شقيقه الموسيقار "فريد الأطرش" ذات الصوت الشجى الرائع الحساس المعبر والمسيطر على الوجدان لتغنى أغاني أم كلثوم التي كانت من أحب المطربات إلى قلبها ، والتي كانت من أكثر المعجبات بصوتها خاصة وأنها كانت أسبق من غيرها من المطربين والمطربات من تبيان ما فى صوت أم كلثوم من ألوان وطبقات لم يهبها الله لصوت مطربة سواها (١) وبعد أن استمع الملحن "داود حسنى" إلى صوتها فى عام ١٩٣١ تعهدا بالرعاية وأسماها "أسمان" وعندما استمع إليها الموسيقار "مدحت عاصم" دهش لصوتها الساحر المنطلق من الأسس المحافظة إلى أفاق الكلاسيكية العربية الحديثة بما يتجاوز الحدود التي أصرت أم كلثوم على التوقف عندها (٢) فأخذ يتعهدا بالرعاية وإتاحت لها الغناء بالإذاعة حتى خرجت على المستمعين بلون جديد من الغناء واتسعت شهرتها ، وبدأت السينما تتجه إليها ، وكان أول فيلم تغنى فيه هو مجنون ليلى ثم زاد من نجاحها وشهرتها فيلم "إنتصار الشباب" الذى عرض فى عام ١٩٤٠ وقامت ببطولته مع أخيها فريد الأطرش ونجح نجاحا باهرا (٣) . أما عن أمتع أغانيها فكانت "ليالى الأوس فى فينا" ضحكك حلوة يا حبيبي" إمتى حا تعرف إمتى" "يا بدع الورد يا جمال الورد" وعلى الرغم من قيام النقاد بترشيحها للمكان الثانى فى عالم الغناء بعد أم كلثوم ، فقد اختفت لفترة ثم عادت مرة أخرى فى عام ١٩٤٤ حيث شاركت فى فيلم "غرام وانتقام" الذى تقاسمت بطولته مع يوسف وهبى وانشغلت فى تسجيل أغانيه ثم إنتهت حياتها فى عمر الزهور عن اثنتين وثلاثين عاما حيث اختفت إلى الأبد بعد حادث مريب لقيت فيه مصرعا غرقا أثناء ركوبها سيارة إقتلبت بها فى ترعة الساحل بالقرب من المنصورة خلال سفرها إلى "رأس البر" للاصطياف فى ١٤ يوليو

• ١٩٤٤

(١) سعيد أبو العينين : أسمان لعبة الحب والمخابرات ، القاهرة كتاب اليوم ، سبتمبر ١٩٩٦ ص ١٢-١٣ .

(٢) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها ، ص ٥٢ .

(٣) سمير فريد : فريد الأطرش لحن الخلود ، القاهرة ، أمانو للنشر ١٩٦٦ ص ٣٨ .

وعلى الرغم من أن أصابع الاتهام فى تدبير مصرع "أسهان" تشير إلى أجهزة المخابرات البريطانية التى لعبت معها ولحسابها ثم إنقلبت عليها ولعبت ضدها ، فقد سرت شائعة فى معظم أنحاء مصر غداة مصرعها بأن أم كلثوم هى التى دبرت لها الحادث خشية منها على مكانتها<sup>(١)</sup> .

والحقيقة أن أم كلثوم كانت بعيدة تماما عن هذا الادعاء ، وأن المخابرات البريطانية كانت وراء هذه الشائعة لتخفى دورها فى اغتيالها بعد أن ثبت دورها المزدوج وعلاقتها بالمخابرات الألمانية والإنجليزية . وظهرت لىلى مراد<sup>(٢)</sup> تلك المطربة ذات الصوت العذب البديع الذى أعطى للغناء العربى مذاقا خاصا والتى استطاعت أن تربط بين الحب والجمال فى أذهان مستمعيها . فقد نشأت على تقليد أم كلثوم ثم انفردت بطريقتها المستقلة خاصة بعد أن شعرت أن الغناء على المسرح أمام التخت ساعات طوالا كما كانت تفعل أم كلثوم من الصعب تكراره ، فالتمت حدودها كمطربة سينمائية الصوت والأداء ، لقد برزت لىلى مراد فى عصر الأصوات الجميلة القوية المدربة ، واستحققت لقب ملكة الأغنية السينمائية بجدارة حيث أتاحت لها السينما غناء العديد من أجمل الأغاني التى تألق فيها صوتها الجميل ذو البحة الخفيفة النادرة التى تنتاب نبراته بين الفينة والأخرى فى النغمات ، فاشتركت فى مجموعة من الأغاني الفكاهية التى ما زال الناس يطربون لها مثل ديالوج "الشحات" مع المطرب محمد فوزى وديالوجات أخرى مع إسماعيل يس وشكوكو ونجيب الريحانى وغيره ، وقد لحن لها عبد الوهاب العديد من أغانيها ، واستخدم أعلى طبقات صوتها فى فيلم "يحيا الحب" كما لحن لها القصبجى لحنه المدهش (أنا قلبى دلىلى عام ١٩٤٧) ولحنين جميلين فى فيلم شاطى الغرام<sup>(٣)</sup> .

وبعد أن أعطت لىلى مراد أجمل ما عندها ، واقتربت من سن الشيخوخة انسحبت من مسرح الغناء فى هدوء ورأت أن تبقى حلماً جميلاً فى نفوس مستمعيها . كما ظهرت المطربة اللبنانية "ألكسندرا بدران" التى اسمها يوسف وهبى "نور الهدى" ولكن نجاحها لم يستمر طويلا .

(١) أبو العينين : مرجع سابق ص ٢٢٦ .

(٢) نشأت فى أسرة فنية فولدها المطرب زكى مراد ، وشقيقها الملحن منير مراد وقد أحببت الغناء من أبيها الذى ورثت عنه جمال الصوت .

(٣) القاهرة ، العدد ١٥٨ فى يناير ١٩٩٦ مقال للأستاذ كمال النجمى تحت عنوان "لىلى مراد ملكة الأفلام الغنائية" .

وظهرت نجاة على مقلدة لصوت أم كلثوم مستغلة في ذلك معدن صوتها الجميل ، وعاشت أسيرة هذا التقليد ثم تزوجت واعتزلت الغناء بعد ذلك ولم يثر اعتراضها تسالوا أو دهشة ، وكذلك فعلت رجاء عبده وفتحية أحمد ، وسعاد محمد ، ونادرة وفيروز ، ومن المؤكد أن مطربات مثل لطيفة وعليا التونسية أو سميرة سعيد المغربية وغيرها توصلن إلى الشهرة عن طريق ترديدن لأغاني أم كلثوم ، ولكن قوة صوت أم كلثوم ومساحتها الواسعة دفعهن إلى التحرك بتلقائية نحو مجالات أخرى من الغناء وهكذا فشلت الكثيرات ممن أردن تقليد أم كلثوم ، والجلوس على عرشها خاصة وأن صوتها كان جزءا منها لا ينفصل عنها ، صوت ليس ككل الأصوات ، كانت تغنى للغناء وحين نشاء لا كما يشاء الآخرون<sup>(١)</sup> ، لذلك فإن مقارنة صوتها بغيره من الأصوات يضره أكثر مما ينفعه . وعلى كل حال فالسؤال الذى يطرح نفسه هو . هل كان يجب على أم كلثوم أن تتوقف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة كما توقفت عن التمثيل عندما اقترب منها من الخمسين خاصة وأن ما قدمته للطرب العربى يكفيها عظمه وأبهة ، وبعد أن ظهر فى آخر حفلاتها أن صوتها تقطع ، وأنها أخذت تعثر على السلم الموسيقى حتى تدرجت الدموع من العيون ، يقول أنيس منصور أنه كتب مقالا وجهه بصورة غير مباشرة لأم كلثوم أملا أن تكف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة وطلب إليها أن تقرأه وموضوع المقال ماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات ؟ فالذى قدمته للغناء كثير ، وهذا الكثير يجعلها تتفرد بالعظمة فى الأداء والغناء ولكن أم كلثوم لم تع هذا المعنى ، ولم تكن تريد أن تتوقف<sup>(٢)</sup> بل أرادت أن يستمر عطاؤها طالما بقيت على قيد الحياة .

أم كلثوم يندر تكرارها :

وهكذا كانت أم كلثوم ذلك النبع الصافى من الفن الرقيق العذب الصادق الذى أسهم إسهاما جوهريا فى خلق الأساليب المتطورة للتلحين والعزف والإيقاع ، وذلك السنغم الجميل الذى اخترق الأفاق والذى رفع قدر المطربة وفرض احترامها على الناس فواجهها الناس بسلوك محترم حتى رحلت فى الخامس من فبراير ١٩٧٥<sup>(٣)</sup> بعد أن أعطت

(١) لمعى المطيبي : نساء ورجال من مصر ، مرجع سابق ص ١١-١٢ .

(٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٠ ص ٣٩٠ .

(٣) فى الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور بدأ سير الجنازة وكان من المقرر أن تنتهى عند جامع جركس ، ولكن المشيعين لم يأنهوا لذلك ، بل توجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث صلوا على جثمانها هناك وسط حشد هائل من محبيها ، لمعى المطيبي : مرجع سابق ص ١٨ .

لمصر والعالم العربى فناً رفيعاً راقياً ، وكان حب الناس لها من حب الوطن وكانت حديث الناس فى العالم العربى كله ، وفى العواصم العالمية التى يعيش بها الآلاف من العرب .

إنها ظاهرة ومعجزة فنية وثقافية من النادر تكرارها ، فقد ظلت حوالى نصف قرن تبشر بأنبئ القيم وأغلاها وهو الحب ، وكلما انقضت الأيام ثبت أن صوتها خالد خلود الزمن ، وأن أغانيها ما زالت قبلة الشباب والشيوخ معا .

لقد امتلكت كوكب الشرق القلوب وملكت نفوذاً هائلاً ، وحصلت على أرفع الأوسمة من أغلب الحكومات العربية ، وظلت مكانتها فى قلوب الملايين خالدة حتى رحلت أم كلثوم بجسدها وإن ظلت باقية بفنها الأصيل ، وتراثها الغنائى الجميل الذى تزخر به مكتبات الإذاعة والتليفزيون فى كافة أنحاء الوطن العربى ، ولا يزال صوتها العبقري يملأ الأسماع بأحلى ما صاغته عقول شعرائنا من أغنيات تحمل أسمى المعانى وأجمل الأفكار لتصوغها لحناً من إبداعات عمالقة الملحنين<sup>(١)</sup> .

والسؤال الذى يتردد على ألسنة الناس غالباً هل تتكرر ظاهرة أم كلثوم ؟

الواقع أنه إذا تغير المناخ الذى يعيشه فن الموسيقى والطرب الحالى ، وتناسى المطربون الجدد فكرة الكسب السريع ووقفت الدولة بالمرصاد لمفسدى الذوق المصرى ، وتنافس الشعراء والملحنون فى إبداع أحلى ما تجود به قرائحهم كما كان يحدث أيام أم كلثوم يمكن أن يبرز على الساحة الغنائية أمثال أم كلثوم التى صبرت فى بداية حياتها كثيراً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، فمصر دائماً ولادة والأمل لا يزال قائماً فى الأصوات الواعدة التى يمكن أن تتكرر منها مثل هذه الظاهرة الفريدة

(١) الضمرانى : مرجع سابق ص ٦٦ .